

مَنْ تَلَا لَيْسَ يَسْتَبْرَأُ

فِي الْإِسْلَامِ

وَتَمْرَاتِ التَّمَسُّكِ بِهَا

إِعْدَادُ

أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ طَارِقُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله ربّ العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ تسليماً كثيراً.

أما بعد:

إِكْمَالُ الدِّينِ بَعَثَةَ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

فإن من عظيم فضل الله تعالى على هذه الأمة أن أكمل لها الدين، وأتم نعمته على عباده المؤمنين، كما قال سبحانه: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [١].

وإكمال الدين وإتمام النعمة إنما كان بمبعث النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، الذي ما ترك خيراً إلا دلّ الأمة عليه، ولا شراً إلا حذرها منه، قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ نَبِيًّا قَبْلِي إِلَّا كَانَ حَقًّا عَلَيْهِ أَنْ يَدُلَّ أُمَّتُهُ عَلَى خَيْرٍ مَا يَعْلَمُهُ لَهُمْ، وَيُنْذِرَهُمْ شَرًّا مَا يَعْلَمُهُ لَهُمْ» [٢].

ففارق صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أُمَّتَهُ وقد تركها على المحجة البيضاء، والطريق الواضحة الغراء، التي لا يزيغ عنها إلا من كان من الهالكين، كما قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «قَدْ تَرَكْتُكُمْ عَلَى الْبَيْضَاءِ [٣] لَيْلَهَا كَنَهَارُهَا، لَا يَزِيغُ عَنْهَا بَعْدِي إِلَّا هَالِكٌ» [٤].

السُّنَّةُ وَحْيٌ كَالْقُرْآنِ

وإن من حكمة الله تعالى البالغة، ونعمته السابغة، أن أعلیٰ منزلة السُّنَّةِ في الإسلام؛ فجعلها وحياً كالقرآن، كما قال

[١] المائة: ٣.

[٢] رواه مسلم (١٨٤٤).

[٣] «الْبَيْضَاءُ» أي: المِلَّةُ والحجة الواضحة. انظر: حاشية السندي على سنن ابن ماجه (٢٠/١).

[٤] رواه ابن ماجه (٤٣)، وصحَّح إسناده الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (٩٣٧).

سبحانه: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [٥].

قال العلامة السعدي **رَحْمَةُ اللَّهِ**: «أي: لا يَتَّبِعُ إِلَّا مَا أَوْحَى اللهُ إليه من الهدى والتقوى في نفسه وفي غيره. ودلَّ هذا: على أن السُّنَّةَ وَحْيٌ من الله لرسوله **صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**، كما قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ اللهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [٦]، وأنه معصوم فيما يُخْبِرُ به عن الله تعالى وعن شرعه؛ لأنَّ كلامه لا يصدر عن هوى، وإنما يصدر عن وَحْيٍ يُوحَى» [٧].

وقال **صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**: «أَلَا إِنِّي أُوتِيتُ الْكِتَابَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ» [٨]، فأخبر **صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** أنه أُوتِيَ السُّنَّةَ كما أُوتِيَ الكتاب» [٩].

قال التابعي الجليل حسان بن عطية **رَحْمَةُ اللَّهِ**: «كان جبريل **عَلَيْهِ السَّلَامُ** ينزل على رسول الله **صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** بالسُّنَّةِ كما ينزل عليه بالقرآن، ويُعلِّمه إياها كما يُعلِّمه القرآن» [١٠].

الأمر بالتمسك بالسُّنَّةِ والتحذير من تركها

ولذا جاء الأمر بالتمسك بالسُّنَّةِ، والعصُّ عليها، قال الله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ [١١].

وقال سبحانه: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأَحْذَرُوا فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّما عَلَى رَسُولِنَا الْبَلِغُ الْمُبِينُ﴾ [١٢].

[٥] النجم: ٣-٤.

[٦] النساء: ١١٣.

[٧] تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للسعدي (ص ٩٦٥).

[٨] رواه أبو داود (٤٦٠٤)، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (٤٦٠٤).

[٩] مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة للموصلي (ص ١٤٩٤).

[١٠] رواه أبو داود في المراسيل (٥٣٦) واللفظ له، والدارمي (٦٠٥) مختصراً، وقال الألباني: «رواه الدارمي بسند صحيح عن حسان بن عطية فهو مرسل». انظر: تخريج أحاديث كتاب الإيمان (ص ٣٦).

[١١] الأنفال: ٢٠.

[١٢] المائدة: ٩٢.

«وقد أمر الله تعالى بطاعة الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في نحو أربعين موضعاً من كتابه» [١٣].

وقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الْمَهْدِيِّينَ الرَّاشِدِينَ، تَمَسَّكُوا بِهَا، وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِدِ» [١٤] [١٥].

وهذا من أصول عقيدة أهل الإسلام، قال الإمام أحمد رَحِمَهُ اللهُ مَقْرَّراً ذلك: «أصول السنة عندنا: التمسك بما كان عليه أصحاب رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والافتداء بهم، وترك البدع، وكل بدعة فهي ضلالة، والسنة عندنا آثار رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ» [١٦].

وقد جاء التحذير من ترك السنة، أو ردّها، أو بُغْضها، أو التَّشْكِيك فيها؛ وأنَّ فاعل ذلك مستحقُّ للذُّل والإهانة، والعذاب والنَّدامة، قال تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [١٧].

أي: «فليحذر الذين يخالفون أمر رسول الله أن تنزل بهم محنة وشر، أو يصيبهم عذاب مؤلم موجه في الآخرة» [١٨].

وقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «جُعِلَ الذُّلُّ وَالصَّغَارُ عَلَيَّ مَنْ خَالَفَ أَمْرِي» [١٩].

قال الإمام مالك رَحِمَهُ اللهُ: «السنة مثل سفينة نوح؛ من ركبها

[١٣] مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية (١٩/٨٣) بتصرف يسير.

[١٤] «النَّوَاجِدُ»: هي الأضراس جمع ناجدة. انظر: مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (١/٢٦٤).

[١٥] رواه أبو داود (٤٦٠٧)، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (٤٦٠٧).

[١٦] شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة لأبي القاسم اللالكائي (٣١٧) باختصار.

[١٧] النور: ٦٣.

[١٨] التفسير الميسر لنخبة من العلماء (ص ٣٥٩).

[١٩] رواه أحمد (٥٦٦٧)، وصححه الألباني في إرواء الغليل (١٢٦٩).

نجا، وَمَنْ تَخَلَّفَ عَنْهَا هَلَكَ» [٢٠].

وظيفة السنة مع القرآن

ومما يدل على عظيم منزلة السنة -بالإضافة إلى كونها وحيًا- أنه لا يُستغنى عنها لفهم كتاب الله تعالى؛ فهي تُفسّر القرآن، وتبيّنه، وتدل عليه، وتعبّر عنه، ويكون ذلك بقوله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**، كما يكون بفعله وإقراره.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية **رَحِمَهُ اللَّهُ** مُقَرَّرًا ذلك: «وقد اتفق الصحابة والتابعون لهم بإحسان وسائر أئمة الدين: أن السنة تُفسّر القرآن، وتبيّنه، وتدل عليه، وتعبّر عن مجمله، وأنها تُفسّر مُجْمَل القرآن من الأمر والخبر» [٢١].

ضلال المستغنين بالقرآن عن السنة

وبهذا يتبيّن ضلال المستغنين بالقرآن عن السنة، وقد أشار النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** إلى هؤلاء بقوله: «يُوشِكُ الرَّجُلُ مُتَّكِنًا عَلَيَّ أَرِيكَتِي، يُحَدِّثُ بِحَدِيثٍ مِنْ حَدِيثِي، فَيَقُولُ: بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ كِتَابُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَمَا وَجَدْنَا فِيهِ مِنْ حَلَالٍ اسْتَحْلَلْنَاهُ، وَمَا وَجَدْنَا فِيهِ مِنْ حَرَامٍ حَرَّمْنَاهُ! أَلَا وَإِنَّ مَا حَرَّمَ رَسُولُ اللَّهِ **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** مِثْلُ مَا حَرَّمَ اللَّهُ» [٢٢].

«فهذا الحديث يدل دلالة قاطعة على أن الشريعة ليست قرآنًا فقط؛ وإنما هي قرآن وسنة، فمن تمسك بأحدهما دون الآخر، لم يتمسك بأحدهما؛ لأن كل واحد منهما يأمر بالتمسك بالآخر، كما قال تعالى: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [٢٣]» [٢٤].

[٢٠] مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية (٤/١٣٧)، وانظر: تاريخ بغداد للخطيب البغدادي (٨/٣٠٩) بنحوه.

[٢١] مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية (١٧/٤٣٢).

[٢٢] رواه ابن ماجه (١٢)، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه (١٢).

[٢٣] النساء: ٨٠.

[٢٤] منزلة السنة في الإسلام للألباني (ص ١١-١٢) باختصار.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية **رَحْمَةُ اللَّهِ**: «علينا أن نتبع الكتاب، وعلينا أن نتبع الرسول، واتّباع أحدهما هو اتّباع الآخر؛ فإنّ الرسول بَلَّغَ الكتاب، والكتاب أمر بطاعة الرسول، ولا يختلف الكتاب والرسول البتّة، كما لا يخالف الكتاب بعضه بعضاً، قال تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [٨٢] ﴿٢٥﴾ [٢٦].

الواجب تجاه السّنة

فالواجب على المسلمين جميعاً أن لا يُفرّقوا بين القرآن وصحيح السّنة، من حيث وجوب الأخذ بهما، والاستقامة عليهما، والعمل بكل ما دلّ عليه من العقائد والعبادات والأخلاق وغير ذلك؛ فإنّ ذلك أمان من الضلال، كما قال **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**: «تَرَكْتُ فِيكُمْ شَيْئَيْنِ لَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُمَا: كِتَابَ اللَّهِ وَسُنَّتِي، وَلَنْ يَنْفَرَقَا حَتَّى يَرِدَا عَلَيَّ الْحَوْضَ» [٢٧].

قال ابن أبي العز **رَحْمَةُ اللَّهِ**: «فالواجب كمال التسليم للرسول **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**، والانقياد لأمره، وتلقّي خبره بالقبول والتصديق، دون أن يعارضه بخيالٍ باطل يُسمّيه معقولاً، أو يُحمّله شبهةً أو شكّاً، أو يُقدّم عليه آراء الرجال وزبالة أذهانهم، فيؤحّده بالتحكيم والتسليم والانقياد والإذعان، كما وحّد المرسل بالعبادة والخضوع والذل والإنابة والتوكل» [٢٨].

ثمرات التمسك بالسّنة

هذا وقد جاءت نصوص الوحيين مبينة أنّ التمسك بالسّنة له ثمرات طيبة يجنيها العبد في الدنيا والآخرة، ومن هذه الثمرات:

١- أنّ التمسك بها سبب في الهداية، وسلامة من الزيغ

[٢٥] النساء: ٨٢.

[٢٦] مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية (١٩ / ٨٤).

[٢٧] رواه الحاكم (٣٢٣)، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير وزيادته (٢٩٣٧).

[٢٨] شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز (١ / ٣٢١).

والضلالة، قال **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**: «تَرَكْتُ فِيكُمْ شَيْئَيْنِ لَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُمَا: كِتَابَ اللَّهِ وَسُنَّتِي» [٢٩].

قال أبو بكر الصديق **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ**: «لَسْتُ تَارِكًا شَيْئًا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** يَعْمَلُ بِهِ إِلَّا عَمَلْتُ بِهِ، فَإِنِّي أَخْشَى إِنْ تَرَكْتُ شَيْئًا مِنْ أَمْرِهِ أَنْ أُرِيعَ» [٣٠].

٢- أَنْ التَّمَسُّكَ بِهَا أَمَانٌ مِنَ الْوُقُوعِ فِي سُبُلِ الشَّيْطَانِ وَعِصْمَةٌ مِنْ ذَلِكَ، فَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** قَالَ: خَطَّ لَنَا رَسُولُ اللَّهِ **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** خَطًّا، ثُمَّ قَالَ: «هَذَا سَبِيلُ اللَّهِ»، ثُمَّ خَطَّ خَطُوطًا عَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ شِمَالِهِ، ثُمَّ قَالَ: «هَذِهِ سُبُلٌ عَلَى كُلِّ سَبِيلٍ مِنْهَا شَيْطَانٌ يَدْعُو إِلَيْهِ»، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [٣١][٣٢].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية **رَحِمَهُ اللَّهُ**: «فالصراط المستقيم: هو ما بَعَثَ اللَّهُ بِهِ رَسُولَهُ مُحَمَّدًا **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** بِفِعْلِ مَا أَمَرَ، وَتَرْكِ مَا حَظَرَ، وَتَصَدِيقِهِ فِيمَا أَخْبَرَ، وَلَا طَرِيقَ إِلَى اللَّهِ إِلَّا ذَلِكَ» [٣٣].

٣- نَيْلُ رَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى، قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ﴾ [٣٤]، وَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَاطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [٣٥].

قال العلامة السعدي **رَحِمَهُ اللَّهُ**: «فطاعة الله وطاعة رسوله من أسباب حصول الرحمة» [٣٦].

٤- الْفُوزُ بِمُحَبَّةِ اللَّهِ تَعَالَى، قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ

[٢٩] سبق تخريجه (ص ٥).

[٣٠] رواه البخاري (٣٠٩٣)، ومسلم (١٧٥٩).

[٣١] الأنعام: ١٥٣.

[٣٢] رواه أحمد (٤١٤٢)، وحسن إسناده الألباني في مشكاة المصابيح (١٦٦).

[٣٣] مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية (١/١٩٧).

[٣٤] الأعراف: ١٥٦-١٥٧.

[٣٥] آل عمران: ١٣٢.

[٣٦] تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للسعدي (ص ١٥٧).

اللَّهُ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴿٣٧﴾ .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية **رَحْمَةُ اللَّهِ**: «فاتباع سنة رسوله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** وشريعته باطناً وظاهراً هي موجب محبة الله» [٣٨].

٥- أنها سبب في سعادة العبد في الدارين، قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [٣٩].

قال ابن القيم **رَحْمَةُ اللَّهِ**: «طاعة الله ورسوله، وتحكيم الله ورسوله، هو سبب السعادة عاجلاً وآجلاً، ومن تدبر العالم والشور الواقعة فيه علم أن كل شر في العالم فسببه مخالفة الرسول والخروج عن طاعته، وكل خير في العالم فإنما هو بسبب طاعة الرسول، وكذلك شرور الآخرة وآلامها وعذابها إنما هو من موجبات مخالفة الرسول ومقتضياتها» [٤٠].

وبهذا يُعلم: أن في لزوم السنة «تمام السلامة، وجماع الكرامة، لا تطفأ سُرُجها، ولا تُدَحَضُ حُجَجُها، من لزمها عَصِمَ، ومن خالفها ندم، إذ هي الحصن الحصين، والركن الركين، الذي بَانَ فَضْلُهُ، ومَتَّنَ حَبْلُهُ، مَنْ تَمَسَّكَ بِهِ سَادَ، وَمَنْ رَامَ خِلافَهُ بَادَ، فالمتعلقون به أهل السعادة في الآجل، والمغبوطون بين الأنام في العاجل» [٤١].

والحمد لله رب العالمين.

وصلَّى اللهُ وسلَّم على نبيِّنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.



[٣٧] آل عمران: ٣١.

[٣٨] مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية (١٠/ ٨٢).

[٣٩] النساء: ١٣.

[٤٠] الرسالة التبوكية لابن القيم (ص ١٣٥).

[٤١] مقدمة صحيح ابن حبان (١/ ١٠٢).